الفصل الأول
تأسيس القاهرة ونموها العمراني مع الزمن

تأسيس القاهرة ونموها العمراني مع الزمن

أعز الله سبحانه وتعالى مصر بالإسلام حين فتحت على يد العرب المسلمين بقيادة عمرو بن العاص سنة 20هـ/ 641م[1]، وكانت مدينة الإسكندرية هي عاصمتها وقتئذ، وأراد عمرو أن يتخذها عاصمة وقاعدة لحكمه إلا أن الخليفة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رفض ذلك وطلب منه –كما سبق أن طلب من قادة جيوشه بالعراق– إنشاء مدن جديدة بالبلاد لا يحول بينه وبينها حائل كالأنهار والبحار، ولذلك اضطر عمرو أن يخطط مدينة جديدة تتخذ عاصمة لمصر وتكون مركز الاتصال الرئيس بالخلافة الإسلامية بالمدينة المنورة بالحجاز وتكون مركزاً للدعوة للإسلام، فأسس عمرو مدينة "الفسطاط" التي أطلالها لا تزال قائمة جنوب القاهرة في حي مصر القديمة محيطة بجامع عمرو بن العاص (خريطة 1).

وظلت الفسطاط عاصمة لمصر بقية عصر الخلفاء الراشدين وعصر الدولة الأموية (41–132هـ/ 661م–750م) حتى قامت الخلافة العباسية بالعراق، وطاردت جيوشها بقيادة صالح بن علي العباسي وأبو عون عبد الملك بن يزيد، آخر خليفة أموي وهو مروان بن محمد، واستطاعوا قتله في قرية أبو صير بمحافظة بني سويف بمصر، وأصبحت مصر تابعة للخلافة العباسية.

---

(1) اختلفت الروايات في تاريخ فتح مصر كما اختلفت في كونها فتحت صلحاً أو عنوة، وأدق ثلاث روايات لتاريخ فتحها هي يوم الجمعة مستهل المحرم سنة 20هـ/ 22 ديسمبر سنة 640م، ويوم الجمعة 13 ربيع الأول سنة 20هـ/ أول مارس سنة 641م، ويوم الاثنين 28 ربيع الآخر سنة 20هـ/ 16 أبريل سنة 641م.
ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليس المصري، أبو القاسم، (187–257هـ/ 803هـ–871م)
– فتوح مصر والمغرب، جزيُن، العددين 49، 50 من سلسلة الذخائر التي تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة، الجزء الأول، تحقيق عبد المنعم عامر، والجزء الثاني تحقيق شارلز توري، جـ1 ص117، جـ2، ص80؛
المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، (766–845هـ/ 1365–1442م).
– المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار الشهير بالخطط، 4 أجزاء، تحقيق أ. د. أيمن فؤاد سيد، نشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1422–1424هـ/ 2002–2003م، المجلد الثاني، ص10، 24، 40؛ بتلر (الفريد– ج. بتلر)
– فتح العرب لمصر، تعريب محد فريد أبو حديد بك، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1365هـ/ 1946م، ص201.

وفي سنة 133هـ/ 751م أنشأ أبو عون عبد الملك بن يزيد الجرجاني والي مصر من قبل الخليفة أبي العباس السفاح أول خلفاء الدولة العباسية مدينة جديدة بمصر هي مدينة "العسكر" لتكون عاصمة رسمية لمصر، وكانت بمثابة ضاحية للفسطاط (خريطة 1)، وذلك إما لرغبة العباسيين في التجديد، وجرياً على السنة المتبعة ببناء عواصم جديدة للدول المتعاقبة أو بسبب الحريق الذي تعرضت له الفسطاط على يد رجال مروان بن محمد، وجاء موقع العسكر شمال الفسطاط حيث أن موضعها كان أرضاً فضاءً مناسباً لتأسيس مدينة جديدة، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى عسكر العاسيين، وقد اندثرت العسكر ومكانها اليوم المسافة بين منطقة المذبح جنوباً إلى جامع السيدة زينب شمالاً.

وفي سنة 254هـ/ 868م تولى حكم مصر أحمد بن طولون، واستطاع ابن طولون الاستقلال بمصر عن الخلافة العباسية، وأسس الدولة الطولونية سنة 256هـ/ 870م، واستمرت بيده ويد أولاده من بعده حتى سنة 292هـ/ 904م، وبالرغم من قصر عمر هذه الدولة إلا أنها كانت عميقة الأثر في تطورها في كافة المجالات وتركت آثاراً وتقاليد معمارية وفنية ورثته القاهرة طول تاريخها المجيد، وكما فعل أبو عون من قبل حين أسس "العسكر" في الجانب الشمالي من الفسطاط، أسس ابن طولون مدينته الجديدة "القطائع" في الجانب الشمالي الشرقي للعسكر لتكون عاصمة جديدة لمصر (خريطة 1)، وموضع القطائع اليوم منطقة قلعة الكبش بقسم السيدة زينب، وقد اندثرت ولم يبق من آثارها سوى جامع أحمد بن طولون.

وفي سنة 297هـ/ 909م استطاع الفاطميون أن يؤسسوا دولة لهم في إفريقية (تونس) بعد أن قضوا على دولة الأغالبة، وتنتسب الدولة الفاطمية إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو نسب يعتبر أكبر إثبات منهم لنسبتهم لآل البيت النبوي رداً على خصومهم من الخلفاء العباسيين السنة ومن يتبعهم الذين يشككون في أصلهم، ولم يذكروا دولتهم إلا بالدولة العبيدية نسبة إلى مؤسسها عبد الله المهدي الذي أثيرت حوله أيضاً شكوك في أصل عقيدته، وتذكره المصادر السنية بصيغة التصغير "عُبيد الله" كنوع من التقليل من شأنه، بينما تذكره المصادر الإسماعيلية باسم "عبد الله" وهكذا ورد اسمه على النقود

المضروبة في عهده[1]، واتخذ المهدي مدينة "رقادة" في تونس عاصمة لدولته سنة 297هـ/ 909م، وذكر اسمه في الخطبة يوم الجمعة بمسجدها الجامع باعتبار أن الخطبة شارة من شارات الملك، وظلت رقادة مقر الدولة الجديدة حتى إنشاء "المهدية" سنة 308هـ/ 920م، وأصبحت عاصمة للدولة[2].

ولثاقب رأي المهدي وحكمته وذكائه أراد أن يكون مركز دولته الفتية مصر ذات الثراء الكبير والمشاكل الأقل بدلاً من إفريقية (تونس) ذات الموارد المحدودة والثورات والقلاقل المستمرة، لذلك بادر بإرسال حملتين متتالتين لغزو مصر، وكانت الأولى بقيادة ابنه وولي عهده أبى القاسم محمد سنة 301هـ/ 912-913م، وقد تمكنت من أخذ برقة والاسكندرية والفيوم، ولكن القائد التركي مؤنس الخادم الذي أرسله الخليفة العباسي المقتدر بالله ليقود عساكره العباسية وعساكر مصر تمكن من هزيمة الحملة الفاطمية بعد عدة حروب، فانسحبت وعادت إلى المغرب[3].

وفي السنة التالية (302هـ/ 913-914م) جهز المهدي حملته الثانية التي قوامها مائة ألف رجل، على رأسهم قائد مغربي اسمه حُباسة بن يوسف، واستولى على برقة، ودخل الإسكندرية في يوم السبت الثامن من المحرم سنة 302هـ/ 14 أغسطس 913م، ولكن الخلافة العباسية أرسلت مدداً من الجيوش من العراق بقيادة الحسين الماذرائي وأحمد كيغلغ في شهر صفر في جمع من القواد، وانضموا إلى تكين والي مصر، واستطاعوا التغلب على الفاطميين في الجيزة يوم الخميس 22 من شهر جمادى الأولى 302هـ / الموافق 23 ديسمبر 913م، في معركة قتل فيها الآلاف[4].

(1) أيمن فؤاد سيد، تعليقه على الخطط للمقريزي، نشر مؤسسة الفرقان، المجلد الثاني، ص173.

(2) محمد عبد الستار، موسوعة العمارة الفاطمية، نشر دار القاهرة، الطبعة الأولى، 2006م، الكتاب الأول، ص12.

(3) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر)، (766-845هـ/ 1365-1442م)
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، نشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1423هـ/ 2002م، المجلد الثاني، ص180.

(4) الكندي (أبى عمر محمد بن يوسف الكندي المصري المتوفي سنة 650هـ/ 961م).
- تاريخ ولاة مصر، ويليه كتاب تسمية قضاتها، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، 1407هـ/ 1987م، ص202-204؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص115، 180.

وفي سنة 307هـ/ 919م أرسل المهدي حملته الثالثة بقيادة ابنه وولي عهده أبى القاسم، وأرسل أيضاً أسطولاً بقيادة سليمان الخادم، واستطاعت الحملة الاستيلاء على الإسكندرية والجيزة والأشمونين والفيوم، ولكن هذه الحملة فشلت هي الأخرى بعد أن مكثت بمصر حوالي السنة[1].

وقد توفي الخليفة المهدي سنة 322هـ/ 934م ولم يستطع تحقيق حلمه بالاستيلاء على مصر، فخلفه ابنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد الخليفة الفاطمي الثاني في تونس (322-334هـ/ 934-946م) الذي أرسل حملة رابعة سنة 324هـ/ 936م، ولكن الإخشيد حاكم مصر آنذاك استطاع ردها عن مصر[2].

أما ثالث الخلفاء الفاطميين بتونس وهو المنصور بنصر الله اسماعيل (334-341هـ/ 946-953م) فلم يحاول غزو مصر نظراً للقلاقل والضغوط التي تعرض لها في المغرب، ولما تولى الخلافة المعز لدين الله الفاطمي أبو تميم معد خلفاً لأبيه المنصور (341- 365هـ/ 953- 975م) عمل جاهداً على غزو مصر فاستعد لذلك أتم الاستعداد، فمد سلطانه على المغرب الإسلامي كله حتى وصل نفوذه إلى ساحل المحيط الأطلنطي، وجمع أموالاً كثيرة برسم غزو مصر، كما قضى سنتين في حفر الآبار وإقامة الاستراحات على طول الطريق إلى الاسكندرية، في ذلك الوقت، كانت مصر تمر بظروف قاسية وأزمة اقتصادية طاحنة نتيجة لانخفاض فيضان النيل وما ترتب عليه من مجاعة وما أعقب ذلك من انتشار الوباء، بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية وضعف الحكومة المصرية، وفي ذلك الوقت كانت مصر ممهدة بالدعاية الفاطمية التي نجحت في تكوين رأي عام يؤيدها حتى قيل أن الفاطميين أتوا مصر نتيجة لطلب المصريين.

فجهز المعز لدين الله حملة عسكرية كبيرة قوامها مائة ألف رجل مجهزين بالمؤن وآلات الحرب والقتال وكل ما يحتاجه ذلك الغزو، وكانت تكلفتها أربعة وعشرين مليون دينار، وكان على رأس هذه الحملة قائده جوهر الصقلبي[3]، وخرجت الجيوش من القيروان بتونس

(1) الكندي، ولاة مصر ص208؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص116، 117.

(2) الكندي، ولاة مصر ص216-217؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص119.

(3) جوهر الصقلبي بالباء وهو الصحيح لاستخدام الفاطميين للعنصر الصقلبي على نطاق واسع في دولتهم، والصقالبة هم السلافيون وينتشرون في البلقان وفي شرق ووسط أوروبا في ذلك الوقت في بلغاريا=

في يوم السبت 14 ربيع الآخر عام 358هـ/ 5 فبراير 969م[1]، واستطاع جوهر الاستيلاء على الاسكندرية، وسارت الحملة بمحاذاة فرع النيل المسمى فرع رشيد حتى قابلت الجيش الإخشيدي في بلدة ميت شلقان التابعة للجيزة، وانتصر جوهر، وعبر النيل إلى البر الشرقي وسار إلى الفسطاط فسلمت له يوم الثلاثاء 17 شعبان سنة 358هـ/ 6 يوليو 969م، وسار بجيوشه حتى عسكر في السهل الرملي الواقع إلى الشمال الشرقي من الفسطاط[2].

وعن موضع القاهرة هذا الذي أناخ فيه جيش جوهر (خريطة 1) ذكر المقريزي أنه سهل رملي ليس فيه من البنيان سوى بستان الإخشيد محمد طغج المعروف في زمن المقريزي باسم الكافوري، ودير للنصارى كان يعرف بدير العظام في المكان الذي يحوي جامع الأقمر، وبقى من الدير بئر تقول العامة عنها بئر العظمة بجوار جامع الأقمر ويُنقل الماء منها إليه، وكان أيضاً بهذه الرملة مكان ثالث يعرف بقصير الشوك صار موضعه عند بناء القاهرة يعرف بقصر الشوك من جملة القصور الزاهرة[3].

وبالفتح الفاطمي هذا انتقلت مصر من وضع إلى وضع، فقد أصبحت مقر خلافة بعد أن كانت ولاية، كما جاءت بمذهب جديد هو المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي قامت الدولة الفاطمية على أساسه، وكان أهل مصر يتبعون المذاهب السنية، وجرياً على العادة من قبل بإنشاء مدن جديدة تتخذ عواصم وقواعد للدول والحاكمين الجدد، بنى جوهر مدينة القاهرة، كما يوجد سبب آخر يتعلق بالدولة الفاطمية ذاتها؛ إذ أنها دولة قامت على أساس

=ورومانيا وتشيك، وقد ذكر المؤرخون أنه مملوك رومي رباه المعز لدين الله أبو تميم معد، وكناه بأبى الحسن وعظم محله عنده في سنة 343هـ/ 954م، وصار في رتبة الوزارة، فصيره قائد جيوشه، واستطاع اخضاع المغرب كله، وانتهى في مسيره إلى البحر المحيط واصطاد منه حوتا (سمكا) وبعثه إلى مولاه المعز، وقد توفي يوم الاثنين 23 ذي القعدة سنة 381هـ/ أول فبراير 992م. المقريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص255-260.

(1) في هذه المناسبة أنشد محمد بن هانئ قصيدة منها:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع ... وقد راعني يوم من الحشر أروع

غداة كأن الأفق سد بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

المقريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص257.

(2) المقريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص254.

(3) الخطط، المجلد الثاني، ص208.

ديني متخذة المذهب الشيعي محوراً لها، وكان الخليفة الذي يطلق عليه الإمام في ذلك المذهب يتمتع بمزايا وحقوق لا يجب أن تنتقل إلى أحد غيره، فكانت القاهرة هي تلك المدينة التي تعزله عن طبقات الشعب في العاصمة القديمة الفسطاط، لذا فقد جاءت محصنة ومحاطة بأسوار وبوابات وتحوى قصوراً مخصصة للإمام وحاشيته وأتباعه وجيشه، وإمعاناً في إكمال تلك الهالة التي أحيطت بشخصه فقد ضمت القاهرة أنفاقاً وسراديب مخصصة لانتقالاته ليبعد قدر الإمكان عن العيون وحتى يظل شخصه مجلل بالوقار والذاتية والخصوصية.

وعن تاريخ إنشاء القاهرة نقل المقريزي لنا روايتان: الأولى نصها: "وذلك أن القائد جوهر الكاتب لما قدم الجيزة بعساكر مولاه الإمام المعز لدين الله أبي تميم معد أقبل في يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة[1]، وسارت عساكره بعد زوال الشمس، وعبرت الجسر[2] أفواجاً، وجوهر في فرسانه إلى المناخ الذي رسم له المعز موضع القاهرة الآن، فاستقر هناك، واختط القصر، وبات المصريون، فلما أصبحوا حضروا للهناء، فوجدوه قد حفر أساس القصر بالليل، وكانت فيه أزورارات غير معتدلة، فلما شاهدها جوهر لم يعجبه، ثم قال: قد حفر في ليلة مباركة، وساعة سعيدة، فتركه على حاله، وأدخل فيه دير العظام[3]".

وبتحليل هذه الرواية نقول أن 17 شعبان 358هـ يوافق فعلاً يوم الثلاثاء، أما باقي الرواية فهي غير معقولة وغير مقبولة، فالمعز لم يأت إلى مصر من قبل ولا يعرف هذا المكان، كما أنه من غير المعقول أن يحفر الجيش المنهك في المعارك والمشوار الطويل الذي قطعه أساسات القصر في نفس ليلة وصوله، فهو يحتاج إلى وقت كاف للراحة والاستجمام واستعادة قواه.

أما عن الرواية الثانية فيقول المقريزي: "ويقال: إن القاهرة اختطها جوهر في يوم السبت لست (مضين)[4] من جمادى الآخرة، سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، واختطت كل قبيلة خطة

(1) يوافق هذا التاريخ 6 يوليو 969 ميلادية.

(2) كان يوجد جسر من مراكب متراصة يربط الجيزة بجزيرة الروضة، وجسر آخر يواجهه يربط الجزيرة بساحل الفسطاط وكان موضع هذا الجسر قبل مقياس النيل بحوالي مائة متر.

(3) المقريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص212.

(4) "مضين" في الأصل كانت "بقين"، وأنا أعتقد أنها خطأ من ناسخ الخطط وصحتها "مضين"، لأن 24 جمادى الآخرة سنة 359هـ لا يوافق يوم سبت بل يوافق يوم أربعاء، وأن يوم السبت يتفق مع لست "مضين" من جمادى الآخرة سنة 359هـ/ 16 أبريل 1970م.

عرفت بها: فزويلة بنت الحارة المعروفة بها، واختطت جماعة من أهل برقة الحارة البرقية، واختطت الروم حارتين: حارة الروم الآن[1]، وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر[2].

وعموماً فإن بناء الأسوار والقصر وهذه الحارات قد يستغرق أربع سنوات بدأت فيما بين سنة 358هـ/ 969م، وهي سنة الفتح الفاطمي لمصر، وسنة 362هـ/ 973م، وهي سنة وصول الإمام المعز لدين الله مدينة القاهرة.

وقد خططت القاهرة لتكون مدينة ملكية وليست مدينة عامة، فكانت مقصورة على الخليفة الفاطمي وأولاده وأهله وحاشيته وجيشه، وكانت محصنة بأسوار تحميها من أي غزو خارجي أو ثورة داخلية، إذ قال المقريزي: "وقصد جوهر باختطاط القاهرة حيث هي اليوم أن تصير حصناً فيما بين القرامطة، وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها، فأدار السور اللبن على مناخه الذي نزل فيه بعساكره، وأنشأ من داخل السور جامعاً، وقصراً، وأعدها معقلاً يتحصن به، وتنزله عساكره، واحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة، وما وراءها من المدينة"[3].

أما عن اسم القاهرة والأسماء الأخرى التي أطلقت على المدينة فهناك رأي يذكر أن المدينة سميت في بداية الأمر باسم المنصورية تيمناً باسم "المنصورية" التي بناها المنصور بالله والد المعز بإفريقية (تونس)[4]، كما أُطلق عليها أيضاً باسم المعزية نسبة إلى المعز، وقد ورد اسم المعزية على المسكوكات طوال العصر الفاطمي[5]، أما عن اسم القاهرة فقد ذكر كل من ابن دقماق والمقريزي أن المعز أطلق عليها هذا الاسم حين جاء إلى القاهرة[6]، وقد عرفت أيضاً باسم القاهرة المعزية، والمعزية القاهرة، إلا أن المؤرخين ربطوا اسم القاهرة بأسطورة مثلها مثل تأسيس كثير من المدن التي ربطوا تأسيسها بالأساطير، فقال المقريزي: "ويقال في سبب تسميتها أن القائد جوهرًا لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد

(1) حارة الروم تتفرع من شارع المعز بالعقادين بالقرب من باب زويلة، وعلى ناصيتها سبيل محمد علي.
(2) المقريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص212؛ ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، ص22.
(3) الخطط، المجلد الثاني، ص212-213
(4) المقريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص254.
(5) محمد عبد الستار، موسوعة العمارة الفاطمية، الكتاب الأول، ص58-59.
(6) الانتصار لواسطة عقد الأمصار، حـ5 ص35، الخطط، المجلد الثاني، ص254.

ظاهر مصر ليقيم بها الجند، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبدًا، فاختاروا طالعًا لوضع الأساس وطالعًا لحفر السور، وجعلوا بدائر السوق قوائم خشب ثم ربط بين كل قائمتين حبل فيه أجراس وقالوا للعمال: إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة، فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك، فاتفق أن غرابًا وقع على حبل من تلك الحبال التي فيها الأجراس فتحركت كلها، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا، فصاح المنجمون: القاهرة في الطالع فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه، ويقال: إن المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك فسموها: القاهرة واقتضى نظرهم أنها لا تزال تحت القهر "[1].

أما عن تخطيط القاهرة أولاً عند تأسيسها فقد روعي فيه كونها مدينة ملكية؛ لذلك حصنت بأسوار ذات بوابات، ويتوسطها قصر الخليفة الكبير وأمامه ميدان فسيح وفي امتداده غرباً بستان كبير كان قائماً فعلاً هو بستان الإخشيد المعروف بالبستان الكافوري وقد أدخل في داخل سور القاهرة الغربي وإلى الجنوب من القصر المسجد الجامع الذي عرف بجامع القاهرة، وأطلق عليه الأزهر.

ويخترق المدينة شارع رئيس بشق المدينة من أولها لآخرها يبدأ من باب الفتوح شمالاً حتى باب زويلة جنوباً وهو يمثل قصبة القاهرة وشارعها الأعظم الذي يعرف الآن بشارع المعز لدين الله، ويتفرع من هذا الشارع على مسافات غير منتظمة حارات تتفرع منها دروب وأزقة تمثل كل حارة بدروبها وأزقتها تجمعاً سكنياً لطائفة أو قبيلة من عناصر الجيش الفاطمي (خريطة 2).

وكان سور القاهرة سميكاً جداً مبني من الطوب اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه 1200 متراً يحصر داخله مساحة 1440000 متراً مربعاً- أي حوالي 340 فداناً- موزعة كالتالي: 70 فداناً بنى فيها قصر الخليفة، 35 فداناً للميدان أمامه، 35 فداناً للبستان الكافوري، والباقي وقدره 200 فداناً خصصت للحارات التي تضم بيوت قبائل وفرق الجيش الفاطمي موزعة على جانبي الشارع الأعظم.

وقد فتح بالسور المربع المحيط بالقاهرة ثمانية أبواب، بابان بكل جهة، وكانت القاهرة دون مساحتها الآن حيث أضيفت عليها مساحات جديدة أيام الخليفة المستنصر بالله على يد وزيره بدر الجمالي فيما بين سنتي 480هـ/ 1087م و485هـ/ 1092م.

(1) المقريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص254-255.

وقد حدد المقريزي مكان تلك الأبواب القديمة[1]، أيامه (توفي 845هـ/ 1442م) والتي شاهد بقاياها وحقق موضعها بقوله: "ففي الجهة القبلية[2] – التي تفضي بالسالك منها إلى مدينة مصر (الفسطاط) بابان متجاوران يقال لهما "بابا زويلة"، وموضعهما الآن بحذاء المسجد الذي تسميه العامة بسام بن نوح، ولم يبق إلى هذا العهد سوى عقده ويعرف بباب القوس[3]، وما بين باب القوس هذا وباب زويلة الكبير[4]، ليس هو من المدينة التي أسسها القائد جوهر، وإنما هي زيادة حدثت بعد ذلك.

وكان من جهة القاهرة البحرية – وهي التي يسلك منها إلى عين شمس- بابان: أحدهما باب النصر وموضعه بأول الرحبة التي قدام الجامع الحاكمي الآن وأدركت قطعة منه كانت قدام الركن الغربي من المدرسة القاصدية[5]، وما بين هذا المكان وباب النصر الآن مما زيد في مقدار القاهرة بعد جوهر، والباب الآخر من الجهة البحرية باب الفتوح وعقده باقٍ مع عضادته[6] اليسرى وعليه أسطر مكتوبة بالقلم الكوفي، وموضع هذا الباب الآن بآخر سوق المرحلين وأول رأس حارة بهاء الدين مما يلي باب الجامع الحاكمي[7]، وما بين هذا العقد وباب الفتوح من الزيادات التي زيدت في القاهرة من بعد جوهر.

وكان في الجهة الشرقية من القاهرة – وهي الجهة التي يسلك منها إلى الجبل- بابان أيضاً: أحدهما يعرف الآن الباب المحروق والآخر يقال له باب البرقية، وموضعهما دون مكانهما

---

(1) للصديق المهندس محمد أبو العمايم دراسة قيمة حقق فيها حدود القاهرة أيام المعز وخططها وحاراتها وأبوابها، بعنوان "أسوار مدينة القاهرة، وخططها –سور جوهر- سنة 358هـ/ 969م"، نشرت في مجلة حوليات إسلامية، العدد 36، بالمعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

(2) اختص المصريون دون غيرهم من جيرانهم بالتعبير عن الحد الجنوبي باسم الحد القبلي –أي اتجاه القبلة–، وبالتعبير عن الحد الشمالي باسم الحد البحري – أي المواجه للبحر المتوسط.

(3) من حسن الحظ أن جامع سام بن نوح المجاور لبابي زويلة القديمين مازال قائماً في مكانه بشارع المعز بالعقادين ملاصقاً لسبيل محمد على (أثر رقم 401) (انظر الخرائط المرفقة).

(4) المقصود به الباب القائم للآن (أثر رقم 199).

(5) المدرسة القاصدية أيضاً لا تزال قائمة للآن بشارع الجمالية ومسجلة في عداد الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة برقم 10. (انظر الخرائط).

(6) العضادة المقصود بها الكتف، وكانت النصوص التأسيسية للآثار تكتب في شريط على جانبي الباب.

(7) حارة بهاء الدين هي شارع بين السيارج الآن ومدخلها أمام الزاوية الغربية لجامع الحاكم بأمر الله (أثر رقم 15) (انظر الخرائط).

الآن، ويقال لهذه الزيادة من هذه الجهة بين السورين[1]، وأحد البابين القديمين موجود إلى الآن أسكفته[2].

وكان في الجهة الغربية من القاهرة – وهي المطلة على الخليج الكبير[3] بابان: أحدهما باب سعادة والآخر باب القنطرة، وباب ثالث يعرف باب الخوخة أظنه حدث بعد جوهر[4].

جوهر[4].

وأجمل المقريزي صورة القاهرة في أوائل سنوات إنشائها بقوله: "وكان سور القاهرة يشتمل على قصرين وجامع، يقال لأحد القصرين: (القصر الكبير الشرقي)[5]، وهو منزل سُكنى الخليفة، ومحل حرمه، وموضع جلوسه لدخول العساكر، وأهل الدولة، وفيه

(1) بين السورين هنا بالجانب الشرقي للقاهرة غير بين السورين بالجانب الغربي الذي لا يزال اسمه قائماً للآن على المنطقة حول شارع بوسعيد.

(2) الأسكفة هي العتبة العليا للباب.

(3) الخليج الكبير محله الآن شارع بورسعيد الذي كان يعرف أيضاً بشارع الخليج المصري.

(4) الخطط، المجلد الثاني، ص213–214.

(5) كانت العادة في الدول الإسلامية عند تأسيس المدن الجديدة هي تشييد بنائين هما دار الإمارة والمسجد الجامع، وعند تأسيس القاهرة كان مع القائد جوهر مال بلا حدود زوده به المعز لدين الله ليتم به فتح مصر، ويؤسس القاهرة، لذلك لم ينشئ جوهر دار إمارة بل أنشأ أكبر قصر خلافة عرف في الإسلام هو القصر الكبير الشرقي، بترتيب وتوجيه من المعز، فبناه على الترتيب الذي رسمه له، وفي رواية للمقريزي: " وكان ابتداء وضعه مع وضع أساس سور القاهرة في ليلة الأربعاء 18 شعبان سنة 358هـ/ 7 يوليو 969م، وركّب عليه بابان يوم الخميس 13 جمادى الأولى سنة 359هـ/ 24 مارس 970م، ثم أدار عليه سوراً محيطاً به في سنة 360هـ/ 971م، وهذا القصر كان دار الخلافة إلى آخر وقت، فلما انقرضت الدولة على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، أخرج أهل القصر منه وأسكن فيه الأمراء، ثم خرب أوّلا فأوّلا" ... وقال ابن عبد الظاهر: " ولما أخذه صلاح الدين، وأخرج من كان به كان فيه اثنا عشر ألف نسمة، ليس فيهم فحل إلا الخليفة، وأهله وأولاده، فأسكنهم في دار المظفر بحارة برجوان. وكان هذا القصر يشتمل على عدة مواضع من قاعات ومناظر بنيت على مر الزمن هي: القصر اليافعي وقصر الذهب وقصر الإقبال وقصر الظفر وقصر الشجرة وقصر الشوك وقصر الزمرد وقصر النسيم وقصر الحريم وقصر البحر، وهذه كلها قاعات ومناظر من داخل سور القصر الكبير ويقال لها: القصور الزاهرة، ويسمى مجموعها القصر". انظر بالتفصيل: القريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص484 وما بعدها.

الدواوين وبيت المال، وخزائن السلاح، وغير ذلك، وهو الذي أسسه القائد جوهر، وزاد فيه المعز، ومن بعده من الخلفاء، والآخر تجاه هذا القصر، ويعرف: بـ (القصر الغربي)، وكان يشرف على البستان الكافوري، ويتحول إليه الخليفة في أيام النيل [1] للنزهة على الخليج، وعلى ما كان إذ ذاك بجانب الخليج الغربي من البركة التي يقال لها بطن البقرة [2]، ومن البستان المعروف بالبغدادية[3]، وغيره من البساتين التي كانت تتصل بأرض اللوق، وجنان الزهري[4]، ويقال للجامع: جامع القاهرة، والجامع الأزهر"[5].

وبعد أن اختط جوهر أسوار القاهرة، وبعد أن عين مكان قصر الخليفة ومكان المسجد الجامع، وزع مساحات من القاهرة على الفرق المختلفة المكونة لجيشه ليختطوا فيها حارات داخل أسوار القاهرة، وأخذت كل حارة اسم الجماعة أو القبيلة التي سكنتها.

ولم يصلنا فيما كتب عن الخمسين عاماً الأولى من عمر الدولة الفاطمية بمصر حصر للحارات التي اختطت داخل القاهرة – أي داخل المدينة المسورة- في مرحلة تأسيسها، ويرجع أ. د. أيمن فؤاد سيد أن عدد حارات القاهرة الأولى كانت ست حارات (خريطة 2) تقع جميعها بالقرب من أبواب المدينة[6] هي: حارة زويلة[7]، وحارة البرقية[8]، وحارة

(1) أيام النيل أي أيام فيضان النيل الذي كان يحدث في فصلي الصيف والخريف ابتداء من شهر يوليو ولمدة تصل لخمسة أشهر تقريباً نتيجة هطول الأمطار الموسمية على هضبة الحبشة وتنقلها أنهارها لتصب في النيل فيحدث الفيضان، وكان الخليج وباقي خلجان مصر وترعها تمتلئ بالماء أيام الفيضان، وكانت تسد في فصل الشتاء وهو الحدث الخاص بالزراعة المعروف باسم السدة الشتوية حتى نظمت أحوال النيل والري بإنشاء محمد علي للقناطر وما أعقب ذلك من إنشاء خزانات وسدود للنيل.

(2) بركة بطن البقرة هذه أعاد تهذيبها وحفرها الأمير أزبك من ططخ الأتابكي فيما بين سنتي 880هـ/ 1476م و890هـ/ 1485م أيام السلطان قايتباي، وبنى العديد من المنشآت حولها، وعرفت منذ ذلك الوقت باسم بركة الأزبكية، وظلت قائمة تدخلها مراكب النزهة أيام الفيضان حتى ردمها الخديوي إسماعيل وأقام مكانها حديقة الأزبكية وما حولها من مبان.

(3) بستان البغدادية يمثل مكانه اليوم المنقطة التي تحوي شوارع 26 يوليو (فؤاد سابقاً) وعدلي وعبد الخالق ثروت وقصر النيل.

(4) أرض اللوق مكانها اليوم منطقة باب اللوق بوسط البلد، وجنان الزهري مكانها اليوم حي الناصرية.

(5) الخطط، المجلد الثاني، ص214.

(6) أيمن فؤاد سيد، مقدمة للمجلد الثالث من الخطط، ص41.

(7) حارة زويلة نسبة لقبيلة زويلة التي أتت مع جوهر القائد من إفريقية (تونس) وشاركت في فتح مصر، وأقطعهم هذا المكان بالقاهرة ليبنوا فيه حارتهم، وكان يقيمون بزويلة المهدية وهي بلد يمثل ضاحية للمهدية اختطه عبد الله الملقب بالمهدي وأسكنه الرعية وسكن هو بالمهدية التي استحدثها.

• وحارة زويلة بالقاهرة تشغل الآن المنطقة التي تحد من الشمال بشارع الخرنفش، ومن الغرب بشارع زويلة ودرب الكتاب، ومن الجنوب بشارع الصقالبة، ومن الشرق بحارة اليهود القرائين وحارة خميس العدس بالقرب من باب الشعرية، وهذه الحارة تعرف بحارة اليهود لأن أغلب سكانها كانوا من اليهود.

ابن عبد الظاهر، الروضة البهية ص58؛ القلقشندي، صبح الأعشى ج3، ص353؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص10، تعليقات المرحوم محمد بك رمزي على النجوم الزاهرة حـ4 ص52.

(8) حارة البرقية سميت بهذا الاسم نسبة لمشاركة جماعة من أهل برقة في فتح مصر من ضمن طوائف العسكر في الدولة الفاطمية.

كتامة[1]، وحارة الباطلية[2]، وحارة الروم البرانية[3]، وحارة الروم الجوانية[4]، التي تمثل العناصر الرئيسة التي شاركت في الفتح الفاطمي لمصر والتي صاحبت جوهر الصقلبي أو المعز لدين الله.

• ويشغل موضعها الآن المنطقة التي يخترقها الجزي الشرقي من شارع الأزهر، ويحدها من الشرق شارع المنصورية وشارع قرافة المجاورين، ومن الشمال سكة كفر الطماعين وعطفة بير العلوة، ومن الغرب شارع العلوة وشارع= =الكفر، ومن الجنوب شارع الغريب ومسجد عبد الرحمن كتخدا المعروف بجامع الغريب داخل حرم جامعة الأزهر.

ابن عبد الظاهر، الروضة البهية ص48؛ القلقشندي، صبح الأعشى جـ3، ص354؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص32-33؛ تعليقات محمد بك رمزي على النجوم الزاهرة حـ4 ص47.

(1) حارة كتامة قال عنها المقريزي: " هذه الحارة مجاورة لحارة الباطليّة، وقد صارت الآن من جملتها. كانت منازل كتامة بها عند ما قدموا من المغرب مع القائد جوهر، ثمّ مع المعز، وموضع هذه الحارة اليوم حمام كراي وما جاورها مما وراء مدرسة ابن الغنام حيث الموضع المعروف بدرب ابن الأعسر إلى رأس الباطلية، وكانت كتامة هي أصل دولة الخلفاء الفاطميين".

• وموضع حارة كتامة اليوم المنطقة التي تتوسطها حارة الأزهري وعطفة الدواداري وما يتفرع منهما من العطف والدروب الكائنة في الجنوب الشرقي من الجامع الأزهر.

ابن عبد الظاهر، الروضة البهية ص42؛ القلقشندي، صبح الأعشى جـ3، ص354؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص28؛ تعليقات محمد بك رمزي على النجوم الزاهرة حـ4 ص46.

(2) حارة الباطلية عرفت بطائفة يقال لهم الباطلية، قال ابن عبد الظاهر: " وكان المعز لما قسم العطاء في الناس جاءت طائفة فسألت عطاءً، فقيل لها فرغ ما كان حاضراً ولم يبق شيء فقالوا رحنا نحن في الباطل فسموا الباطلية وعرفت هذه الحارة بهم واستمر عليهم هذا الاسم".

• ولا تزال هذه الحارة على حالها اليوم وهي المعروفة الآن بشارع الباطنية والمسمى شارع البيطار، وعلى ناصيته حوض سقى دواب السلطان قايتباي (أثر رقم 74) أمام الباب الذي في الزاوية الجنوبية للجامع الأزهر.

ابن عبد الظاهر، الروضة البهية ص42؛ القلقشندي، صبح الأعشى جـ3، ص351؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص21؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة حـ4 ص46.

(3) حارة الروم البرانية عرفت بهذا الاسم تمييزاً لها عن حارة الروم الجوانية، فقد ذكر ابن عبد الظاهر أن الوراقين في زمنه كانوا يكتبون حارة الروم السفلي وحارة الروم العليا المعروفة بالجوانية. وأقول أن السفلى نعتت بذلك لأنها تقع في أسفل القاهرة بالقرب من باب زويلة، والأخرى بالعليا لأنها في أعلى القاهرة بالقرب من باب النصر.

• ولا تزال هذه الحارة تعرف حتى اليوم باسم حارة الروم بالسكرية متفرعة من شارع المعز بالقرب من باب زويلة، وعلى ناصيتها سبيل محمد علي (أثر رقم 401) وبداخلها دير الأمير تادرس.

ابن عبد الظاهر، الروضة البهية ص21؛ القلقشندي، صبح الأعشى جـ3، ص355؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص22-23؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة حـ4 ص42.

(4) حارة الروم الجوانية اختصر اسمها في العصر المملوكي إلى حارة الجوانية فقط، وقد نعتت بهذه الصفة لأنها كانت جوا القاهرة بالقرب من قصر الخلافة.

• وحارة الجوانية هذه لا تزال قائمة للآن متفرعة من شارع الجمالية، وعلى ناصيتها سبيل الأمير محمد (أثر رقم 14)، ويقابله جامع ووكالة وسبيل أودة باشي (أثر رقم 591)، ويتفرع من الحارة عدة عطف وأزقة منها عطفة الدير نسبة لدير الأروام الأرثوذكس تخرب معظمه وكان يقع خلف جامع الشهداء.

ابن عبد الظاهر، الروضة البهية ص31؛ القلقشندي، صبح الأعشى جـ3، ص355؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص22، 37؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة حـ4 ص42.

وقد وصف لنا الرحالة الجغرافي العربي "ابن حوقل" القاهرة بعد سنوات قليلة من إنشائها في كتابه "صورة الأرض" الذي ألفه حوالي سنة 367هـ/ 977م فقال: "وكان خارج مصر (الفسطاط) أبنية بناها أحمد بن طولون مساحتها ميل في مثله، يسكنها جنده تعرف بالقطائع كبناء بني الأغلب خارج القيروان لرقادة، وقد خربتا جميعاً في وقتنا هذا، ورقادة أشد تماسكاً وصلاحاً.

وقد استحدث المغاربة بظاهر مصر (أي الفسطاط) مدينة سمتها القاهرة استحدثها جوهر صاحب أهل المغرب عند دخوله إلى مصر لجيشه وشمله وحاشيته، وقد ضمت من المحال والأسواق، وحوت من أسباب القنية والارتفاق بالحمامات والفنادق إلى قصور مشيدة ونعم عتيدة، وقد أحدق بها سور منيع رفيع يزيد على ثلاثة أضعاف ما بني بها، وهي خالية كأنها تركب محالاً للسائمة عند حصول خوف، وبها ديوان مصر، ومسجد جامع حسن نظيف عزير القوام والمؤذنين[1] ...".

وما لبثت القاهرة عبر سنوات قليلة بعد إنشائها إلا وقد امتدت شمالاً وجنوباً، وبنى الخليفة العزيز بالله ابن المعز (365-386هـ/ 975- 996م) الجامع الأنور خارج باب الفتوح، وكان قد أمر ببنائه في شهر رمضان سنة 380هـ/ نوفمبر ديسمبر 990م[2]، وقد أتم جانباً كبيراً منه في مدة عام وخطب فيه العزيز وصلى الجمعة في اليوم الرابع من شهر رمضان عام 381هـ/ 13 نوفمبر 991م[3]، ومات ولم يكمله، ولما تولى العرش ابنه الحاكم بأمر الله (386- 411هـ/ 996- 1021م) أمر وزيره يعقوب بن كلس بأن يتم بناء الجامع ويكمل زخرفته ومأذنتيه، فبدأ عمله في 393هـ/ 1003م وانتهى منه في عام 403هـ/ 1012م[4]، وكان هذا الجامع خارج السور الشمالي للقاهرة.

كذلك اختطت حارة كبيرة خارج باب الفتوح في أيام الحاكم بأمر الله في بداية القرن الخامس الهجري عرفت باسم الحارة الحسينية نسبة إلى قائد القواد الحسين بن جوهر[5]، كما بنى الحاكم بأمر الله الباب الجديد خارج باب زويلة جنوب القاهرة ليحدد لطوائف الجيش المختلفة الحد الأقصى من

(1) ابن حوقل (أبى القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي البغدادي المتوفى سنة 367هـ/ 977م) صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة بيروت، 1992م، ص138.
(2) المقريزي، الخطط، المجلد الرابع، ص108.
(3) نفسه، ص110.
(4) نفسه.
(5) المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص39-40.

أراضي الأطراف الممنوحة لهم[1]، كما اختطت عدة حارات للسودان والمصامدة واليانسية والهلالية والمنجبية، وهم طوائف تألف منها الجيش الفاطمي- جنوبي باب زويلة فيما بينها وبين بركة الفيل وكانت من قبل بساتين، أما فيما بين زويلة ومكان القلعة والقطائع فكانت مقابر لأهل القاهرة[2].

أما بقية الحارات فأخذت في الظهور مع نمو المدينة ووصول عناصر جديدة استعان بها الأئمة الفاطميون لدعم الجيش الفاطمي مثل الأتراك والديلم والسودان والأرمن[3].

وذكر المسبحي المتوفى سنة 420هـ/ 1029م بالإضافة إلى تلك الحارات حارات أخرى هي: "حارة المحمودية[4]، وحارة العطوفية[5]، وحارة الميمونية[6]، وحارة الفرحية[7]، وحارة العبيد[1]".

العبيد[1]".

(1) المسبحي (الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد)، 366- 420هـ/ 977- 1029م.
أخبار مصر، الجزء الأربعون، تحقيق أيمن فؤاد سيد، تياري بيانكي، نشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1978م، ص60.

(2) المقريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص221.

(3) أيمن فؤاد سيد، مقدمته للمجلد الثالث من الخطط ص41.

(4) حارة المحمودية عرفت بهذا الاسم نسبة لطائفة المحمودية من طوائف عساكر الدولة الفاطمية، وموقعها الآن المنطقة الواقعة شمال وغرب جامع المؤيد شيخ على يسار الداخل من باب زويلة وهي المعروفة حالياً باسم شارع الإشراقية وما يتصل به من عطف مثل عطفة أحمد المحروقي وعطفة أمين بك.
ابن عبد الظاهر، الروضة البهية ص52؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص11.

(5) حارة العطوفية نسبة لعطوف وكان خادماً أسود، وقد خدم ست الملك أخت الحاكم، وقد قتله الحاكم بجماعة من الأتراك وقفوا له في دهليز القصر واحتزوا رأسه في يوم الأحد 11 صفر سنة 401هـ، وقد سكنت هذه الحارة طائفة من طوائف العسكر يقال لها العطوفية ثم سكنتها الطائفة الجيوشية.
وهذه الحارة تقع على يسار الداخل من باب النصر ولا تزال قائمة إلى اليوم ويتوسطها حارة العطوف وسكة العطوف.
ابن عبد الظاهر، الروضة البهية ص48-49؛ القلقشندي، صبح الأعشى جـ3، ص355؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص36-37؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة حـ4 ص50.

(6) حارة الميمونية لم يفرد لها المقريزي ترجمة ربما كان لها اسم آخر، وميمون الذي أطلق اسمه على هذه الحارة يعرف باسم ميمون دبة ويكنى بأبي سعيد، أحد خدام العزيز بالله وكان خصيًّا، وكان في سور القاهرة الغربي باب يسمى باب الخوخة كان يعرف أولاً بخوخة ميمون دبة، ويخرج منه إلى الخليج الكبير، وكان موقع هذا الباب بجوار جامع القاضي يحيى زين الدين (أثر رقم 344) الواقع عند تقاطع شارعي الأزهر وبورسعيد.
المقريزي، الخطط، المجلد الثالث ص140-141، تعليقات محمد رمزي على النجوم الزاهرة جـ11 ص142.

(7) حارة الفرحية قال المقريزي عنها: "كانت سكن الطائفة الفرحية، وهي بجوار حارة المرتاحية، فإلى يومنا هذا؛ فيما بين سويقة أمير الجيوش وباب القنطرة، زقاق يعرف بدرب الفرحية، والفرحية، كانت طائفة من جملة عبيد الشراء، وكانت عبيد الشراء عدة طوائف وهم الفرحية، والحسينية، والميمونية، ينسبون إلى ميمون دبه أحد الخدام".
الخطط، المجلد الثالث، ص39.

وقد زار القاهرة في العصر الفاطمي أيام الخليفة المستنصر بالله، الرحالة الفارسي ناصر خسرو، بل أقام بها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر تبدأ من 7 صفر 439هـ/ 4 أغسطس 1407م، وتنتهي في أواخر جمادى الثانية 442هـ/ أواخر أكتوبر 1050م، وأثنى عليها كثيراً، ووصف لنا صوراً للحياة الاجتماعية والاحتفالات زمن الفاطميين، وتبدو في كتاباته المبالغة لتعصبه للمذهب الشيعي الإسماعيلي، إلا أننا نستطيع تخيل ما كانت عليه مدينة القاهرة من ثراء وحياة، ومما كتبه ويدل على عظمة عمران القاهرة وحيويتها: " وقدرت إن في القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان[2] كلها ملك للسلطان وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير مغربية في الشهر وليس بينها ما تقل أجرته عن دينارين، والأربطة[3] والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر وكلها ملك السلطان إذ ليس لأحد إن يملك عقاراً أو بيتاً غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه، وسمعت إن للسلطان (الخليفة) ثمانية ألف بيت في القاهرة ومصر (الفسطاط) وأنه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر يؤجرونها للناس برغبتهم ثم يتقاضون الأجر فلا يجبر شخص على شيء"[4].

ثم يصف ناصر خسرو بعد ذلك قصر الخليفة فقال: " يقع قصر السلطان (الخليفة) في وسط القاهرة، وهو طلق من جميع الجهات، ولا يتصل به أي بناء، وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساويا لمدينة ميافارقين، وكل ما حوله فضاء، ويحرسه كل ليلة ألف رجل، خمسمائة رجل وخمسمائة فارس وهم ينفخون البوق ويدقون الطبل والكوس (الطبول الكبيرة) من وقت صلاة المغرب ويدورون حول القصر حتي الصباح، ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة، وهو لا يري من داخل المدينة لارتفاع أسواره، وقيل إن به اثني

---

(1) حارة العبيد عرفت بطائفة من عبيد الشراء يقال لهم الحسينية نسبة إلى قائد القواد الحسين بن جوهر (الصقلبي)، وقد ذكرها المسبحي في حوادث سنة 395هـ أيام الحاكم بأمر الله. ويشغلها اليوم جزء من شارع الحسينية المواجه لباب الفتوح بالقاهرة.=

=ابن عبد الظاهر، الروضة البهية ص122؛ القلقشندي، صبح الأعشى جـ3 ص55؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص59-62؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، حـ4 ص45.

(2) تبدو المبالغة هنا جدا في عدد الدكاكين بالنسبة إلى مساحة القاهرة المحدودة.

(3) نفهم مما وصفه ناصر خسرو في الصفحة 112 أن كلمة الرباط هنا بمعنى الخان أو الوكالة ولم يوفق المترجم في التعبير عنها.

(4) ناصر خسرو علوي (ولد 394هـ/ 1003م وتوفي ربما 455هـ/ 1063م) – سفر نامة، ترجمه عن الفارسية د. يحيى الخشاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م، ص104.

عشر ألف خادم مأجور ومن يعرف عدد من فيه من النساء والجواري؟، إلا أنه يقال إن به ثلاثين ألف آدمي [1].

وهذا القصر يتكون من اثني عشر بناء، وله عشرة أبواب فوق الأرض فضلاً عن أبواب أخرى تحتها، وأسماء أبوابه الظاهرة هي: باب الذهب، باب البحر، باب السريج، باب الزهومة، باب السلام، باب الزبرجد، باب العيد، باب الفتوح، باب الزلاقة، باب السرية، وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكباً وهذا الباب علي سرداب يؤدي إلي قصر آخر خارج المدينة، ولهذا السرداب الذي يصل بين القصرين سقف محكم. وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة، تقول إنها قدت من صخر واحد، ويتألف القصر من المناظر والإيوانات العالية، وفي داخله دهليز به دكك[2]".

وعن أبواب القاهرة قال ناصر خسرو: "وللقاهرة خمسة أبواب: باب النصر، وباب الفتوح، وباب القنطرة، وباب الزويلة، وباب الخليج[3]". ويلاحظ أن ناصر خسرو في كلامه هنا لم يذكر أبواب القاهرة الشرقية ربما لعدم أهميتها إذ أنها تفتح على الصحراء الشرقية، كما أنه ربما قصد بباب الخليج باب سعادة.

وعن بيوت القاهرة قال: "وليس للمدينة قلعة ولكن أبنيتها أقوى وأكثر ارتفاعاً من القلعة، وكل قصر حصن ومعظم العمارات تتألف من خمس أو ست طبقات[4]".

وعن تزويد القاهرة بالماء قال: "ويجلب ماء الشرب من النيل، ينقله السقاءون على الجمال، والآبار القريبة من النيل عذب ماؤها؛ وأما البعيدة عنه فماؤها ملح. ويقال إن في القاهرة ومصر (الفسطاط) اثنين وخمسين ألف جمل يحمل عليها السقاءون الروايا، وهؤلاء عدا من يحمل الماء على ظهره في الجرار النحاسية أو القرب وذلك في الحارات الضيقة التي لا تسير فيها الجمال[5]".

---

(1) عندما استولى صلاح الدين على هذا القصر، أخرج من كانوا فيه فبلغ عددهم اثنا عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأولاده.

(2) سفر نامة ص104-105.

(3) سفر نامة ص106.

(4) سفر نامة، ص 106.

(5) سفر نامة ص106.

وعن البساتين قال: "وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار، وفي قصر الخليفة بساتين لا نظير لها وقد نصبت السواقي لريها، وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات[1]".

وعن مكانة وغلو بيوت القاهرة كتب ناصر خسرو عن تجربته الشخصية: " وحيث كنت هناك أجر منزل مساحته عشرون ذراعاً في اثني عشر ذراعاً بخمسة عشر ديناراً مغربياً في الشهر، والمنزل الذي أقمت فيه كان أربعة أدوار، ثلاثة منها مسكونة، والرابع خال، وقد عُرض على صاحبه خمسة دنانير مغربية كأجرة شهرية، فرفض معتذراً بأنه يلزمه إن يقيم به أحياناً، ولو أنه لم يحضر مرتين في السنة التي أقمتها هناك[2]".

وعن نظافة البيوت قال: "وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول إنها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة، وهي بعيدة عن بعضها، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر، ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغي لبيته في كل وقت من هدم أو إصلاح دون أن يضايق جاره[3]"، ثم ذكر ناصر خسرو الخليج الموازي لسور القاهرة الغربي، وقصري اللؤلؤة والجوهرة الواقعين عليه، ويصف الاحتفال بفتح الخليج وصفاً دقيقاً مسهبا[4].

وذكر ناصر خسرو أن في القاهرة أربعة مساجد جامعة هي: الأزهر، وجامع النور، وجامع الحاكم، وجامع المعز، وذكر أن الأخير خارج القاهرة على شاطئ النيل، وهو يقصد الجامع الذي كان بالمقس، أما جامع النور فلا أدري أي اسم آخر له وأين كان يقع، وذكر ناصر خسرو أن بالقاهرة عشر حارات[5]، إذ قال:

(1) سفر نامة ص106.
(2) سفر نامة ص106.
(3) سفر نامة ص 106-107.
(4) نفسه ص107-113.
(5) نفسه ص114-115.

أبواب القاهرة الثلاثة (النصر، الفتوح، زويلة)

"ولمدينة القاهرة عشر محلات، وهم يسمون المحلة حارة، وهي حارات: برجوان[1]، وزويله[2]، والجودرية[3]، والديلم[4]، والروم[5]، والباطلية[6]، وعبيد الشراء[7]، والمصامدة"[8].

---

(1) حارة برجوان ذكر المقريزي أنها منسوبة إلى الأستاذ أبى الفتوح برجوان الخادم، وكان خصياً أبيض، ربي في دار الخليفة العزيز بالله وولاه أمر القصور، ولما مات وتولى الخلافة ابنه الحاكم بأمر الله زادت مكانة برجوان أيضاً وتولى الوساطة بين الحاكم وبين الناس في يوم الجمعة لثلاث بقين من رمضان سنة 387هـ/ 10 سبتمبر 997م ولما زادت سطوته ضاق الحاكم به وأمر بقتله فقتل يوم الخميس 26 ربيع الآخر سنة= =390هـ/ 4 أبريل 1000م في حديقة القصر على يد ريدان حامل مظلة الحاكم ومعه مجموعة، وكانت مدة نظر برجوان في الوساطة سنتين وثمانية أشهر تنقص يوماً واحداً.

• وحارة برجوان تقع في المنطقة الواقعة تجاه الجامع الأقمر والتي يحددها شمالاً جامع سليمان أغا السلحدار (أثر رقم 382) ويتوسطها اليوم شارع برجوان وعطفة برجوان وما يتفرع منها من العطف والأزقة.

ويعلق أ. د. أيمن فؤاد سيد في تحقيقه لكتاب الخطط للمقريزي بطرفة تتعلق بحارة برجوان فيقول: "ولم يحدد المقريزي مكان حارة برجوان، وقصر حديثه فقط على برجوان الذي تنسب إليه الحارة علماً بأنها مسقط رأسه (أي المقريزي) وبها داره".

ابن عبد الظاهر، الروضة البهية ص63-65؛ القلقشندي، صبح الأعشى حـ3 ص352؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثالث ص7-9؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة حـ4 ص48.

(2) حارة زويلة سبق التعريف بها.

(3) حارة الجودرية تنسب إلى الأستاذ جودر الذي كان من العبيد الصقالبة الذين دخلوا في ولاء المهدي فقربه إليه، ثم وهبه لولي عهده القائم، فوثق به ثقة تامة وكان يستخلفه على قصره ومن فيه، ولما تولى القائم الخلافة جعل لجودر النظر في بيت المال وخزائن الحرير والكساء، وجعله سفيراً بينه وبين أوليائه وسائر عبيده، وحظى بمكانة مرموقة في خلافة المنصور الذي لقبه بفتى أمير المؤمنين وظل منفرداً بهذا اللقب إلى أن شاركه فيها بعد جوهر الصقلبي بعد أن فتح مصر في عهد المعز لدين الله، وظل كذلك مكرماً حتى وفاته سنة 363هـ/ 974م، وقد سكن هذه الحارة طائفة تنسب إلى الأستاذ جودر في أوائل الدولة الفاطمية.

• وحارة الجودرية لا تزال على تخطيطها الأصلي وتقع غرب الفحامين بالغورية من شارع المعز ويخترقها اليوم شارع الجودرية وفروعه وحارة الجودرية الكبيرة وحارة الجودرية الصغيرة وعطفة الجودرية، وبها جامع وقبة بيرس الخطاط (أثر رقم 191).

أبى علي منصور العزيزي الجودري، سيرة الأستاذ جودر، تحقيق د. محمد كامل حسين، د. محمد عبد الهادي شعيرة، نشر دار الفكر العربي بالقاهرة، 1954م، ص7-10؛ ابن عبد الظاهرة، الروضة البهية ص54-55؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثالث ص12.

(4) حارة الديلم عرفت بذلك لنزول الديلم الواصلين مع أفتكين الشرابي حين قدم ومعه أولاد مولاه معز الدولة البويهي وجماعة من الديلم والأتراك في سنة 368هـ فسكنوا بها فعرفت بهم.

• ويشغل موقع هذه الحارة الآن حارة الكحكيين ودرب الأتراك وحارة الحمام وعطفة السباعي ودرب لولية وحارة خوش قدم، جنوب غرب الجامع الأزهر بحري جامع الفكهاني بشارع المعز، ويوجد داخل حارة خوش قدم زقاق يعرف بحي الديلم.

ابن عبد الظاهر، الروضة البهية ص22؛ القلشندي، صبح الأعشى حـ3 ص354؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثالث ص23؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، حـ4، ص43

(5) سبق التعريف بها.

(6) سبق التعريف بها.

(7) سبق التعريف بها.

(8) حارة المصامدة حارة قديمة كانت مسكونة أثناء إقامة ناصر خسرو في القاهرة (439-442هـ/ 1047-1050م)، وهذا تصحيح لما ذكره المقريزي عنها: أنها اختطت في وزارة المأمون البطائحي وخلافة الآمر بأحكام الله بعد سنة 515هـ.

ويبدو لي مما ذكره المقريزي عنها أن مكان هذه الحارة هو سكة حوش الشرقاوي.

غير أن حالة الرخاء الكبير والعمران المديد التي كانت عليه مدينة القاهرة أثناء إقامة ناصر خسرو فيها لم تدم بعد ذلك سوى سنوات، إلا وقد تعرضت البلاد للأزمات الاقتصادية والفوضى السياسية التي حدثت فيما بين سنتي 446هـ/ 1053م، و454هـ/ 1062م وأعقبتها الشدة العظمى المستنصرية من مجاعات وأوبئة فيما بين سنتي 457هـ/ 1065م، و464هـ/ 1072م حيث قصر النيل عن فيضانه فحدثت مجاعات عظمى، بالإضافة إلى الاضطرابات والصراع السياسي والإداري الدامي الذي صاحب تلك الشدة، والنزاع والعراك الكبير بين طائفتي الأتراك والسودان بالجيش الفاطمي، فأنهكت البلاد، وقد أثرت تلك الشدائد على القاهرة والعمران بها، وعلى الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع بدرجة أشد فاضمحل أمر هذه العواصم وتخرب عدد كبير من منازلها[1].

فالتجأ الخليفة المستنصر إلى والي عكا القوى الأمير بدر الجمالي الأرمني ليوليه الوزارة في مصر في سنة 465هـ/ 1073م، وقلده وزارة السيف والقلم –أي أصبح صاحب حل وعقد– فقضى على الفتن وأعاد لمصر الأمن والأمان، وقام بدر الجمالي بعمل إصلاحات عمرانية كبيرة بالقاهرة فقد " أباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن وكل من وصلت قدرته إلى عمارة بأن يعمر ما شاء في القاهرة مما خلا من فسطاط مصر ومات أهله، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها وعمروا به المنازل في القاهرة وسكنوها، فمن حينئذ سكنها أصحاب السلطان إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية"[2].

ونفهم من نص المقريزي أن ذلك البناء والتعمير كان من نصيب الطوائف العسكرية الذين كانوا يسكنون في القاهرة وأرادوا التوسع بالبناء في داخلها وليس لسكان الفسطاط المصريين نصيب فيها كما يعتقد البعض.

وبعد ذلك بسنوات قام بدر الجمالي بعمل أسوار جديدة ذات بوابات جديدة للقاهرة تمتد شمالي السور الشمالي وجنوبي السور الجنوبي لمسافة تقدر بحوالي 150 متراً، وحوالي 25 متراً، في كل من شرقي السور الشرقي وغربي السور الغربي، مما جعل مساحة القاهرة تزيد لتبلغ

(1) المقريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص142.
(2) نفسه، المجلد الثاني، ص222–223.

حوالي 400 فداناً بطول 1500 متراً ممثلة في قصبة القاهرة من باب الفتوح شمالاً حتى باب زويلة جنوباً، وحوالي 1150 متراً من الشرق للغرب، وقد أدخلت حينئذ المباني التي كانت ظاهر القاهرة مثل جامع الحاكم في الشمال وبعض الحارات في الجنوب، وقد تمت تلك الأعمال بين سنتي 480هـ/ 1087م و485هـ/ 1092م[1].

وبلغت القاهرة الفاطمية أوج ازدهارها وامتدادها العمراني في زمن الخليفة الآمر بأحكام الله (495-524هـ/ 1010-1130م) على يد وزيره المأمون البطائحي (515-519هـ/ 1121-1125م) ففي فترة وزارة الوزير امتد التعمير إلى المنطقة الجنوبية الواقعة بين باب زويلة والمشهد النفيسي، وقد أمر وكيله أبا البركات محمد بن عثمان في شهر ربيع الأول سنة 516هـ/ مايو 1122م بترميم وإصلاح المشاهد الواقعة في طرف هذه المنطقة[2].

أما عن الجانب الغربي للخليج فقد وقع الاهتمام به منذ بداية الدولة الفاطمية، وكان هذا الجانب الموازي للقاهرة المحصور بين الخليج والنيل هو المتنزه الكبير للقاهرة، فقد كان يحتوي على بساتين وحدائق وبرك وخلجان، وفي ربوعه كانت الاحتفالات العظيمة تقام تحت رعاية الدولة، وكان المعز لدين الله هو أول من اهتم به، فقد أسس في منطقة المقس (الأزبكية حالياً) داراً لصناعة السفن على ميناء المقس حيث كان النيل يجرى هناك في ذلك الوقت، وظلت المقس ميناء القاهرة حتى ظهرت بولاق في القرن 7هـ/ 13م[3]، وأقام الحاكم بأمر الله جامعاً في هذه المنطقة عرف باسم جامع المقس والذي تجدد بناؤه على مر الزمن وهو جامع الفتح بميدان رمسيس الآن[4].

---

(1) المقريزي، الخطط، المجلد الثاني ص260-264.

(2) ابن ميسر، أخبار مصر ص91؛ ابن دقماق، الانتصار حـ4 ص121؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، 3 أجزاء، تحقيق جمال الدين الشيال، محمد حلمي أحمد، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (1967-1973م)، القاهرة، حـ3 ص81؛ أيمن فؤاد سيد، مقدمته لكتاب وصف مدينة القاهرة قلعة الجبل لجومار، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص27.

(3) المقريزي، الخطط، المجلد الثالث ص403- 413.

(4) نفسه ص403؛ القلقشندي، صبح الأعشى حـ3 ص361؛ علي مبارك، الخطط التوفيقية حـ5 ص122.

وفي منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أقطع الخليفة المستنصر المنطقة المعرفة اليوم باسم الفجالة وبركة الرطلي إلى "نسب" طبالة الخليفة عندما غنت أمامه احتفالاً بالدعاء للخليفة المستنصر بالله على منابر بغداد أكثر من 40 أسبوعاً، فعرفت أرض تلك المنطقة باسم أرض الطبالة، فبنى بها عدد من الدور والبيوت تباعاً وكانت من ملح القاهرة وبهجتها كما يقول ابن عبد الظاهر[1].

ولكن تلك المناطق التي عمرت غربي الخليج لم تلبث أن هجرت في أعقاب الشدة المستنصرية حتى أن الطائفة الفرحية اختطت بها حارة عرفت باسم "حارة اللصوص" بسبب تعديهم مع غيرهم على من يمر بهذه المناطق أو على أهل المناطق المجاورة[2].

ولم تخطط الحارات بشكل واضح في البر الغربي للخليج ولم ينشأ به تجمع سكاني حقيقي إلا مع بداية القرن السادس الهجري/ الثامن عشر الميلادي أثناء فترة خلافة الآمر بأحكام الله (495- 524هـ/ 1101- 1130م) عندما أعاد الوزير المأمون البطائح زمام الأمن، وعمر ابن التبان رئيس المراكب في الدولة المصرية في أيام الآمر بأحكام الله قبالة الخرق (باب الخلق حالياً) غربي الخليج مسجداً وبستاناً وداراً فعرفت هذه الخطة ببر التبان نسبة إليه، ثم تتابع البناء حتى اقتضى الأمر تخصيص وال مفرد بجامكية (مرتب)، غير والي القاهرة، للإشراف على البر الغربي للخليج[3].

وربما تكون القاهرة قد تأثرت بالصراع الدائر بين شاور وضرغام آخر وزراء الفاطميين قبل دخول شيركوه في نهاية العصر الفاطمي، وقد تكون تخربت مواضع منها[4].

(1) الروضة البهية ص119-120.

(2) ابن عبد الظاهر، الروضة البهية ص112؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص413.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى حـ3 ص358؛ المقريزي، الخطط، المجلد الثالث ص380.

(4) أيمن فؤاد سيد، مقدمته لكتاب جومار "وصف مدينة القاهرة" ص29.

القاهرة في زمن الأيوبيين

استطاع صلاح الدين يوسف بن أيوب إسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية بمصر في محرم سنة 567هـ/ سبتمبر 1171م، وعادت مصر تدين بالولاء الروحي للخلافة العباسية في بغداد، وظل نور الدين يحكم مصر نيابة عن نور الدين زنكي حتى توفي نور الدين في شوال 569هـ/ يونية 1174م فانفرد صلاح الدين بحكم مصر دون منازع حتى توفي سنة 589هـ/ 1193م واستمرت أسرته تتوارث حكم مصر حتى سنة 648هـ/ 1250م.

والواقع أن القاهرة بتاريخها الكبير كعاصمة لمصر وبشكلها وشخصيتها التي لم تتغير كثيراً منذ أيام صلاح الدين ولمدة تزيد على سبعة قرون تدين بكل هذا لصلاح الدين الذي أضفى عليها طابعاً استمر ملازماً لها، وقد رسم لتطورها العمراني خطوطاً واتجاهات سارت عليها فجعلت منها من أكبر وأعظم العواصم في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، وأدخل عليها نظماً معمارية جديدة في العمارة الدفاعية الحربية والعمارة الدينية والاجتماعية بلغت شأناً عظيماً في عهد المماليك الذين ورثوا الأسرة الأيوبية وكانوا امتداداً لنظمها.

ومن أهم أعمال صلاح الدين المعمارية اتخذت طابعاً دفاعياً وكان لها تأثير كبير في نمو القاهرة العمراني وازدهارها هو بناء أسوارها، وقد كان صلاح الدين قد رمم هذه الأسوار عندما كان وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله سنة 566هـ/ 1117م، فلما أصبح سلطان مصر انتدب في سنة 569هـ/ 1174م وزيره بهاء الدين قراقوش لبناء الأسوار بالأحجار، وقصد بأن يجعل للقاهرة وموضع القلعة والفسطاط سوراً واحداً، فمد سور القاهرة الشمالي إلى ميناء المقس (المكس) على النيل وجعل بنهايته برجاً كبيراً، وكذلك مد السور الشرقي، وعمل سوراً للفسطاط أوصله بالسور الشرقي، وقد اكتملت تلك الأعمال بعده[1]. (خريطة 5).

وبإحاطة القاهرة وموضع القلعة والفسطاط بسور واحد توحدت العاصمة في كيان واحد، كما أتاح له النمو نمواً متجانساً تندمج فيه الفسطاط بالقاهرة، ومن الممكن إعادة الحياة مرة أخرى للفسطاط بفضل ذلك الاندماج، وقد كان صلاح الدين قد جدد جامع

(1) عن أثر صلاح الدين في تطوير القاهرة العمراني والمعماري. انظر الكتاب القيم للدكتور عدنان الحارثي: "عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين" نشر مكتبة زهراء الشرق بالقاهرة.

عمرو بن العاص وحور دار الغزل بجواره إلى مدرسة وهو مازال وزيراً للعاضد في سنة 566هـ/ 1171م، ونادى صلاح الدين الناس بالعمران في الفسطاط، كما أن مد أسوار القاهرة الشمالية حتى المقس على شاطئ النيل كانه له أثره الكبير في تعمير هذه المنطقة[1].

ويعد بدأ العمل في بناء الأسوار، أمر صلاح الدين وزيره بهاء الدين قراقوش في سنة 572هـ/ 1176م ببناء قلعة حصينة تكون حصناً دفاعياً له، وكانت العادة في بلاد الشام التي جاء منها صلاح الدين أن يكون لكل مدينة قلعة تتخذ مركزاً للدفاع والمقاومة في حال سقوط المدينة في يد الأعداء، ووقع اختياره على الهضبة المتقدمة من جبل المقطم ليبني عليها القلعة التي أصبحت بعد اكتمالها مقر الحكم للأيوبيين وسلاطين المماليك وباشوات العثمانيين، وتوسطت القلعة السور الحجر الذي يربط القاهرة والفسطاط، وتم بناء أكبر قسم منها في سنة 579هـ/ 1183م بعد أن هدم العديد من الأهرامات الصغيرة المنتشرة بالجيزة لاستخدام أحجارها في بناء القلعة وقد استخدم في تلك الأعمال أسارى الفرنج[2].

وقد جاءت القلعة بمثابة حصن محكم للقاهرة بالإضافة لاتخاذها مدينة صغيرة متكاملة المرافق، والواقع أن صلاح الدين لم يقم في الفترات القصيرة التي أمضاها في القاهرة إقامة دائمة في القلعة، بل كان يتردد بينها وبين دار الوزارة بالقاهرة هو وابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل أبو بكر، وكان الملك الكامل محمد هو أول من انتقل نهائياً من دار الوزارة إلى القلعة سنة 604هـ/ 1207م[3]، وهكذا فقدت القاهرة مكانتها كمركز للحكم

(1) المقريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص264.

(2) لدينا وصف هام ودقيق ومعاصر لبناء القلعة والمسخرين في بنائها من خلال ما سطره الرحالة الأندلسي ابن جبير الذي مر بمصر أواخر سنة 578هـ/ 1183م أثناء رحلته للحج إذ قال: " وشاهدنا أيضاً بناء القلعة -وهو حصن يتصل بالقاهرة، حصين المنعة- يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤونته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور العظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور، وهو خندق ينقر بالمعاول نقراً في الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار - العلوج الأسارى من الروم وعددهم لا يحصى كثرة، ولا سبيل أن يمتهن في ذلك البنيان أحد سواهم ".

ابن جبير، رحلة ابن جبير، نشر الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الثانية، 1998م، ص48.

(3) المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص646.

وأخذت الأنشطة التجارية والحرفية تتسرب إليها وتنتشر في موضع القصور الفاطمية حول الشارع الأعظم أو قصبة القاهرة[1].

وقد واكب إنشاء الأسوار والقلعة إنشاء صلاح الدين وخلفائه منشآت دينية وعلمية واجتماعية هي المدارس والخانقاوات والبيمارستانات، وقد اتخذت تلك المنشآت أشكالاً معمارية جديدة، وقد عرفت المدارس على نطاق ضيق آخر العصر الفاطمي، ولكن صلاح الدين رام من وراء بنائها سبباً هاماً هو نشر المذهب السني والقضاء على المذهب الشيعي، بالإضافة إلى أن المدرسة قامت بدور المسجد والجامع ووظائف علمية أخرى، وقد بلغ عدد المدارس التي بنيت في العصر الأيوبي 25 مدرسة بالقاهرة ومصر، وأدخل صلاح الدين نظام الخانقاوات إلى القاهرة بأن حول دار تسمى دار سعيد السعداء بالقاهرة إلى خانقاه لإقامة الصوفية، وأصبح للخانقاوات في الدولة المملوكية شأن كبير بعد ذلك، كذلك عمل صلاح الدين مارستان (مستشفى) كبير بالقاهرة.

وكلل صلاح الدين أعماله بالقاهرة بعمل كان له أثر كبير في تطور المدينة ونموها، وهو أنه أباح للأمراء والعسكريين وكل من استطاع البناء من أعيان الشعب أن يعمر ما شاء في القاهرة بمخلفات مباني الفسطاط، وبهذا جعل القاهرة لأول مرة عاصمة رسمية وشعبية في نفس الوقت.

وفي العصر الأيوبي أيضاً نما العمران في البر الغربي للخليج (شارع بورسعيد حالياً) وخصوصاً بعد تتابع إنشاء القناطر عليه فسهل الانتقال إلى تلك الأراضي الواقعة غربه والتي كان يغلب عليها الطابع الزراعي، فبدأت تعمر شيئاً فشيئاً بالدور والمنشآت الأخرى، وهذه القناطر هي قنطرة الموسكي التي أقيمت أيام صلاح الدين، وقنطرة الخروبي ومكانها ميدان باب الشعرية الآن التي أقيمت سنة 588هـ/ 1192م، وقنطرة باب الخرق ومكانها ميدان باب الخلق الآن وقد أقامها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب لينتقل إلى البستان الذي أقامه في أرض اللوق سنة 639هـ/ 1242م، بالإضافة إلى قنطرة باب القنطرة التي كانت قائمة منذ العصر الفاطمي.

(1) أيمن فؤاد سيد، مقدمته لكتاب جومار "وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل" ص30.

وفي نهاية العصر الأيوبي انتقل مقر الحكم مؤقتاً من قلعة صلاح الدين المعروفة بقلعة الجبل إلى قلعة الملك الصالح نجم الدين أيوب التي بناها بآخر جزيرة الروضة سنة 638هـ/ 1241م، وكانت تلك القلعة تحتوي على ستين برجاً، وبها عدد كبير من القاعات والوحدات السكنية داخلها لتستوعب فرقة المماليك البحرية التي استجدها في الجيش، وكان من أثر ذلك تعمير جزيرة الروضة كلها، وتعمير مصر القديمة المقابلة للقلعة الصالحية عمارة عظيمة، فقد أقام بها الأمراء والأعيان الدور والمساجد والمدارس ليظلوا بقرب السلطان، وازدهر ميناء الفسطاط في ذلك الوقت ازدهاراً كبيراً.

وفي سنة 645هـ/ 1247م أثناء حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب حكرت أراضي البستان الكافوري بداخل القاهرة، وعمر الناس به الدور [1].

وفي أيام الصالح نجم الدين أيضاً بنيت بعض المناظر والقصور على جبل يشكر المعروف الآن بقلعة الكبش [2].

وفي أيام نجم الدين زار القاهرة الرحالة المغربي ابن سعيد سنة 640هـ/ 1243م، وكان ناقداً لاذعاً للقاهرة إلا أنه أشاد بمتنزهاتها، وأجمل ابن سعيد صورة القاهرة في تلك السنة بقوله: "هذه المدينة اسمها أعظم منها، وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته، لأنها مدينة بناها المعز اعظم خلفاء العبيديين، وكان سلطانه، قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية إلى البحر المحيط، لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة، واهتم من جاء بعد الخلفاء المصريون بالزيادة في تلك القصور، وقد عاينت فيها إيواناً يقولون: إنه بني على قدر إيوان كسرى الذي بالمدائن من أرض العراق، وكان يجلس فيه خلفاؤهم.

ولهم على الخليج الذي بين القسطاط والقاهرة مبانٍ عظيمة جليلة الآثار، وأبصرت في قصورهم حيطاناً عليها طاقات عديد من الكلس والجبس، ذكر لي أنهم كانوا يجددون تبيضها في كل سنة، والمكان الذي يعرف في القاهرة (بين القصرين) هو من الترتيب السلطاني، لأن هناك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين، ولو كانت القاهرة كلها كذلك

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة الملوك، جـ1 ص329.

(2) المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص444.

كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية، ولكن ذلك أمد قليل، ثم يسير منه إلى أمد ضيق، وتمر في ممر كدر حرج بين الدكاكين إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان في ذلك ما تضيق منه الصدور، وتسخن منه العيون، ولقد عاينت يوماً وزير الدولة، وبين يديه أمراء الدولة، وهو في موكب جليل، ولقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة، وقد سدت جميع الطرق بين يدي الدكاكين، ووقف الوزير وعظم الازدحام، وكان في موضع طباخين والدخان في وجه الوزير، وعلى ثيابه، وقد كان يهلك المشاة، وكدت أهلك في جملتهم.

وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب، والأزبال، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينهما ...

وأحسن موضع في ظواهرها للفرجة أرض البطالة، لا سيما أيام القرط والكتان، وأعجبني في ظاهرها بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر، والمناظر فوقها كالنجوم، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل، وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب.

والفسطاط أكثر أرزاقاً وأرخص أسعاراً من القاهرة، لقرب النيل من الفسطاط، فالمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك، ويباع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس يتفق ذلك من ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة.

والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط، وذلك لأنها أجل مدارس، وأضخم خانات، وأعظم ديارا لسكنى الأمراء فيها . لأنها مخصوصة بالسلطنة، لقرب قلعة الجبل منها . فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر، وبها الطراز وسائر الأشياء التي تتزين بها الرجال والنساء، إلا أن في هذا الوقت لما اعتنى السلطان الآن ببناء قلعة الجزيرة التي أمام الفسطاط، وصيرها سرير السلطنة عظمت عمارة الفسطاط، وانتقل إليها كثير من الأمراء، وضخمت أسواقها وبنى فيها للسلطان أمام الجسر الذي للجزيرة قيسارية عظيمة تنقل إليها من القاهرة سوق الأجناد التي يباع فيها الفراء والجوخ، وما أشبه ذلك[1].

(1) ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار، طبعة دار الكتب بمصر، 1970م، ص22-27.

القاهرة في زمن المماليك

يرجع الفضل لوصول المماليك إلى حكم مصر إلى الأيوبيين أنفسهم، فقد أكثر الملك الصالح نجم الدين أيوب من عددهم وإعدادهم كمحاربين على أكمل وجه، وكان لهم في أيامه الفضل الأكبر في هزيمة الصليبيين ممثلة في الحملة الصليبية الخامسة وأسروا ملكهم لويس التاسع في موقعة فارسور سنة 648هـ/ 1250م، وهنا بزغت قوة المماليك وقدراتهم العسكرية الفائقة، ولم يمض بعد ذلك إلا أسابيع من المعركة وفي أول اختبار للقوة على المستوى المحلي استطاعوا إزاحة السلطان توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب عن طريقهم وقضوا عليه، وأعلن للتاريخ ميلاد دولتهم التي ورثت الإرث الأيوبي بكل ما فيه، واستطاعوا أن يجعلوا دولتهم أعظم دولة في عصرهم في سرعة عجيبة، فما كادوا إلا بضع سنوات من إسقاطهم البيت الأيوبي إلا وقد تغلبوا على أخطر قوة غاشمة في ذلك الوقت وهي قوة المغول الساحقة التي أسقطت الخلافة العباسية في بغداد سنة 656هـ/1258م فاوقفوا زحفهم وهزموهم هزيمة منكرة في عين جالوت سنة 658هـ/ 1260م، وأعقب ذلك بجهاد متواصل للصليبين بالشام وفلسطين حتى استطاعوا أن يجلوا عنه آخر صليبي في سنة 692هـ/ 1292م.

ولما كانت الخلافة العباسية هي الرمز الروحي للمسلمين، وبقتل المغول للخليفة المستعصم آخر خليفة ببغداد حدث ذلك الفراغ الروحي للمسلمين، فما كان من السلطان الظاهر بيبرس إلا أن أحيا هذه الخلافة –وإن كانت اسميه فقط– مرة أخرى في القاهرة سنة 659هـ/ 1261م فصارت مصر منذ ذلك الوقت قبلة وزعيمة العالم الإسلامي روحياً بالإضافة إلى كونها القوة المادية.

انعكست تلك الأحداث على مدينة القاهرة إيجابياً فصارت القاهرة في زمن المماليك (648-923هـ/ 1250-1517م) في أوج ازدهارها وعمرانها وتطورها، وكانت من أعظم مدن العالم في ذلك الوقت.

ومنذ أوائل عصر المماليك نمت القاهرة وزاد سكانها وظهر ذلك جلياً في سلطنة الملك الظاهر بيبرس، فقد نمت القاهرة في أيامه شمالاً وجنوباً وغرباً، وكثر عدد السكان في أيامه

نتيجة الهجرات التي جاءت من شرق العالم الإسلامي إلى القاهرة في ذلك الوقت بسبب اجتياح المغول، فقال عنه ابن تغري بردي: "وبني في أيامه بالديار المصرية ما لم يبن في أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين)، ولا ملوك بني أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات، من قريب مسجد التبن (بقصر القبة حالياً) إلى أسوار القاهرة إلى الخليج وأرض الطبالة (الفجالة حالياً)، واتصلت العمائر إلى باب المقسم (ميدان رمسيس حالياً) إلى اللوق إلى البورجي (ميدان التحرير حالياً)، ومن الشارع (شارع المعز) إلى الكبش وحدرة ابن قميحة (غرب زينهم حالياً) إلى تحت القلعة ومشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها إلى السور القراقوشي"[1].

ينجلي ذلك العمران فيما أمر الظاهر بعمارته، ففي آخر سنة 660هـ/ 1262م أنزل الظاهر طائفة من التتر مستأمنين بالدور التي بناها لهم في أراضي اللوق غربي الخليج[2]، كما عمر الظاهر أيضاً ميداناً عظيماً للعب البولو وغيره من أنواع الفروسية وصار متنزهاً له في مكان اسمه البورجي غربي باب اللوق[3]، وموضعه الآن ميدان التحرير، وقد اهتم بيبرس أيضاً بمنطقة جنوب غرب القاهرة حينما عمر قناطر السباع على الخليج ومكانها ميدان السيدة زينب الآن، ليسهل العبور بين صفتي الخليج وييسر الطريق بين القاهرة ومصر القديمة أيضاً وكانت تلك المنطقة بها الكثير من البساتين[4]، وأيضاً عمر الجسر الأعظم الفاصل بين بركة الفيل وبركة قارون بالسيدة زينب حالياً حتى ييسر الطريق للقلعة[5].

وقد اهتم الظاهر بيبرس بالقلعة اهتماماً عظيماً فعمر بها عمائر عظيمة جعلتها أشبه بالمدينة، واهتم بالأسواق حولها ومنها سوق رئيس هو سوق الخيل (ميدان صلاح الدين حالياً)، وأنشأ به حماماً لولده الملك السعيد[6]، وأنشأ الظاهر دوراً كثيرة واسطبلات ما بين القلعة وباب زويلة لأنه كان يكره سكنى الأمير بالقاهرة مخافة من حواشيه على الرعية[7].

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ7 ص196-197.
(2) المقريزي، الخطط، المجلد الثالث ص390-391.
(3)المقريزي، الخطط، المجلد الثالث ص391-392، 628، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة جـ7 ص196.
(4) المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص488.
(5) الخطط، المجلد الثالث ص552، النجوم الزاهرة جـ7 ص191.
(6) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة جـ7 ص191.
(7) نفسه.

ولاقى العمران بالحسينية شمال أسوار القاهرة عناية كبيرة يدل على عظمتها جامعه الكبير الواقع بميدان الظاهر حالياً، والذي أنشأه فيما بين سنتي 665-667هـ/ 1266-1269م[1]، وأنشأ بالقرب من زاوية الشيخ خضر على الخليج وحماماً وطاحوناً وفرناً[2]، واستمر الاهتمام بالحسينية بعد ذلك وبلغ ذلك الحي أوج مجده أيام الناصر محمد بن قلاوون.

أما عن القاهرة المسورة (الفاطمية) فقد كانت مكتملة العمارة في ذلك الوقت، وما كان يحدث بها إما مجرد ترميم أو تعمير لخرائب أو هدم وإعادة بناء، وقد أنشأ الظاهر بيبرس بقصبة القاهرة ببين القصرين مدرسة عظيمة ذات تخطيط جديد اتخذ نبراساً لما بنى بعدها من مدارس، وكان لها دور علمي عظيم في عصر المماليك[3]، وجدد الظاهر جامع الفاكهيين بالقصبة أيضاً، كما جدد الجامع الأزهر وأعاد الخطبة به[4]، ونالت جزيرة الروضة والمقياس عناية كبيرة من الظاهر بيبرس[5].

وفي سلطنة العادل كتبغا (694-696هـ/ 1294-1296م) لقيت الحسينية عناية كبيرة منه، فقد أقام بها كثير من الدور والأسواق العظيمة حينما أنزل هناك مهاجرين من المغول المعروفين بالأوبراتية، وذلك سنة 695هـ/ 1295م[6].

إلا أنه في زمن العادل كتبغا أيضاً اجتاحت البلاد أزمة اقتصادية كبيرة نتجت عن قصور الفيضان وصاحب ذلك أوبئة، فأثر ذلك على المناطق الشمالية للقاهرة والبر الغربي للخليج[7].

وقد بلغت القاهرة أقصى اتساع لها وقمة التعمير فيها في زمن حكم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي تولى السلطنة ثلاث مرات في الفترة ما بين سنة 693

(1) المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص63-64، المجلد الرابع ص188-194.

(2)المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص190، المجلد الرابع ص806-808، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ7، ص192.

(3) المقريزي، الخطط، المجلد الرابع، ص505-512.

(4) نفسه ص100-101.

(5)نفسه، المجلد الثالث ص586.

(6)المقريزي، الخطط، المجلد الثالث، ص63-68.، السلوك جـ1 ص812.

(7) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر دار الوليد، ص31-39.

و741هـ/ 1293- 1341م، فمعاصره ابن فضل العمري يذكر أن حاضرة مصر في وقته كانت تشتمل على ثلاث مدن عظام كلها مدينة واحدة هي الفسطاط والقاهرة وقلعة الجبل[1] (خريطة 6)، وظلت حدود مدينة القاهرة ثابتة منذ أيام الناصر محمد حتى نهاية العصر العثماني دون تغيير كبير، وقد امتد العمران بالقاهرة شمالاً عبر الصحراء وفي الشمال الغربي وفي غرب الخليج والأرض التي اتصلت بالأراضي القديمة نتيجة طرح النيل، واتصل العمران من باب زويلة للقلعة ومصر القديمة والسيدة نفيسة.

وعبر عن ذلك المقريزي فقال: " واتصلت عمائر مصر والقاهرة، فصارا بلداً واحداً يشتمل على البساتين والمناظر والقصور، والدور والرباع، والقياسر، والأسواق، والفنادق، والخانات، والحمامات، والشوارع، والأزقة، والدروب، والخطط والحارات، والأحكار والمساجد، والجوامع، والزوايا والربط، والمشاهد والمدارس، والترب والحوانيت، والمطابخ والشون، والبرك والخلجان والجزائر والرياض، والمنتزهات متصلاً جميع ذلك بعضه ببعض من مسجد تبر إلى بساتين الوزير قبلي بركة الحبش، ومن شاطئ النيل بالجيزة إلى الجبل المقطم "[2].

وقد بلغت جملة الأحكار التي امتد إليها البناء في أيام الناصر محمد أكثر من 60 حكراً، وبلغ عدد المساجد الجامعة التي بها خطبة الجمعة أكثر من 30 جامعاً[3].

وقد أعقب الاتساع الكبير للقاهرة أيام الناصر محمد زيادة سكانية كبيرة وقدر العالم الفرنسي أندريه ريمون عدد سكان القاهرة أيام الناصر ما بين خمسمائة وستمائة ألف نسمة[4]، ولكن هذا العدد انخفض جداً سنة 749هـ/ 1348م بسبب انتشار الوباء الأسود (الطاعون) الذي اجتاح مصر وسائر بلدان البحر المتوسط تلك السنة واستمر خمسة عشر عاماً، وقد عرف هذا الوباء بالفناء الكبير، وانخفض عدد سكان القاهرة بنسبة كبيرة في تلك السنة[5]،

(1) مسالك الأبصار ص20، 79.

(2) الخطط، المجلد الثاني، ص224.

(3) المقريزي، السلوك جـ2 ص543، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة جـ9 ص198.

(4) Raymond. A., La Pooulation du Caire, de Maqrizi a La Descripion de L" Egypte, BED (1975), P.251.

(5) المقريزي، الخطط، المجلد الثاني، ص149، 212، 224؛ السلوك حـ2، ص759-787؛ أبو المحاسن، المحاسن، النجوم الزاهرة جـ10 ص192-221؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، 5 أجزاء، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (1982-1984م) حـ 1 ص 527- 537.

وكذلك انخفض عدد سكان القاهرة ومصر كلها في أعقاب الطاعون الذي حدث في أيام السلطان الأشرف شعبان سنة 776هـ/ 1374م، واستمر مدة سنتين[1].

أما أخطر الأزمات التي تعرضت لها القاهرة فكانت كما يذكر المقريزي هي المحن والحوادث التي داهمتها سنة 806هـ/ 1402م، وما أعقبتها من سنوات، ففي تلك السنة حدثت أزمات اقتصادية كبيرة نتيجة لانخفاض فيضان النيل الذي أعقبته غلاء كبير في الأسعار، وصاحب ذلك أوبئة كثيرة، بالإضافة لانتشار الفتن والاضطرابات والصراعات الداخلية، واغتصاب الأملاك والأوقات في مدينة القاهرة، بالإضافة إلى الأخطار المحدقة بها من الدولة التيمورية التي خربت الشام وهددت مصر نفسها، وكانت تلك الحوادث هي الدافع الذي دفع المقريزي ليؤلف كتابه "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، فخربت معظم الخطط والأحكار التي حدثت أيام الناصر محمد، وخربت الأحياء شمال القاهرة وخاصة الحسينية، وكذلك خربت أراضي اللوق غرب الخليج، ويقدر أبو المحاسن بن تغري بردي أن أكثر من نصف القاهرة وظواهرها قد تخرب في أثناء الغلاء والوباء الذي صاحب أزمة سنة 806هـ/ 1402م كما فقدت القاهرة نحو ثلثي أهليها[2].

ولكن القاهرة بدأت تتغلب على المحن وتعود لبعض رونقها في سلطنة المؤيد شيخ (815-824هـ/ 1412-1421م) فأعيدت الحياة للخطط على شاطئ النيل، وصارت بولاق بلدة كبيرة وميناء كبير اضمحل معه ميناء الفسطاط في ذلك الوقت، وفقدت الفسطاط أهميتها ابتداء من عصر السلطان الأشرف برسباي (825- 841هـ/ 1422- 1438م)، وذلك بسبب تحول طرق التجارة إلى البحر المتوسط بدلاً من البحر الأحمر عبر طريقه التقليدي (عيذاب- قوص- الفسطاط)، وفي ذلك الوقت نما ميناء بولاق الذي ظهر سنة 713هـ/1313م ولكنه لم يلعب دوراً في الحياة الاقتصادية للقاهرة إلا ابتداءً من القرن 9هـ/ 15م[3].

---

(1) المقريزي، الخطط، المجلد الثاني ص146؛ إغاثة الأمة ص40، 41؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة حـ11 ص66.

(2) المقريزي، السلوك حـ3 ص1127؛ الخطط، المجلد الثالث، ص395، 396، 401، 403، 413، 417، 429، 430؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة حـ13 ص152.

(3) أيمن فؤاد سيد، مقدمة لكتاب جودار وصف مدينة القاهرة ص38

Hanna, N., An Urban history of Bulak in The Mamluk and Ottoman Periods, Le Caire- IFAO, 1983, PP.7-23.

إلا أن القاهرة عاد لها رونقها وكثير من تعميرها الذي كانت على أيام الناصر محمد بن قلاوون أثناء سلطنة الأشرف قايتباي (872-901هـ/ 1468-1499م) الذي أنشأ بالقاهرة وضواحيها منشآت كثيرة، وكما يقول المثل "الناس على دين ملوكهم" كان لأمراء قايتباي دور هام في تعمير ظواهر القاهرة عمارة جمالية، فترى الأمير يشبك بن مهدي الدوادار أنشأ شمال القاهرة إنشاءات عظيمة أحيت منطقة موات وصارت من أعظم متنزهات مصر، فقد أمر يشبك بإزالة القبور التي كانت منتشرة بين الحسينية والريدانية وأقام مكانها قبة عظيمة للنزهة ومدرسة وخانقاة وحوضاً لشرب الدواب وغرس حولها الحدائق والبساتين، وقد بقيت من هذه العمائر القبة المعروفة باسم قبة الفداوية[1] بشارع العباسية (أثر رقم 5) وهذه القبة دليل على عظمة همة الأمير يشبك، كما أنشأ يشبك أيضاً مجموعة معمارية في طريق المطرية شمال القاهرة بقيت منها قبة يشبك[2] (أثررقم 4) وعرف الحي الذي به القبة بعد ذلك باسم حي القبة، وكانت هاتان القبتان وما حولهما من بساتين متنزهاً سلطانياً، بناهما يشبك ليتنزه السلطان قايتباي[3] وأمراؤه،وابنه السلطان الناصر محمد بن قايتباي[4]، وكذلك كان السلطان قانصوه الغوري كثير التردد إليهما[5]، وأيضاً ملك الأمراء خاير بك[6].

كما قام الأمير أزبك من ططخ الأتابكي بتعمير منطقة الأزبكية، فقد حفر بركة بطن البقرة وأحرى إليها الماء من الخليج الناصري، وأنشأ حولها القصور والقاعات والدور والمنشآت التجارية مثل القياصر والحمامات، وأنشأ مسجداً كبيراً، واهتم أثرياء القاهرة وأعيانها بالتعمير حول الأزبكية وصارت من أجمل وأعمر بقاع مصر بقية العصر المملوكي وطول العصر العثماني[7].

(1) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، حـ10 ص273؛ ابن إياس، بدائع الزهور حـ3 ص160، 173.

(2) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، حـ10 ص274؛ ابن إياس، بدائع الزهور حـ3 ص 173.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور حـ3 ص 134، 147، 161، 165، 180، 182، 187، 189، 225، 278.

(4) ابن إياس، بدائع الزهور حـ3 ص 340، 341، 383، 398، 400، 428.

(5)ابن إياس، بدائع الزهور حـ4 ص 171، 244، 253، 281، 287، 288، 294، 296، 297، 311، 325، 327، 330، 335، 338، 339، 340، 352، 359، 375، 381، 383، 395، 397، 409، 419، 446، 466، 470.

(6)ابن إياس، بدائع الزهور حـ5 ص 220، 334، 387، 432.

(7) محمد الششتاوي، متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني، دار الآفاق العربية، ص149-169.

القاهرة في زمن العثمانيين

استطاع الأتراك العثمانيون أن يسيطروا على بلاد الشرق الأدنى على يد السلطان الطموح "سليم الأول" (918-926هـ/ 1512-1520م) الذي تغلب على أكبر قوتين في ذلك الوقت فقد انتصر سنة 920هـ/ 1514م في موقعة خالد يران على الشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية بفارس والعراق، ثم استدار إلى الدولة المملوكية بمصر والشام، وانتصر على السلكان قانصوه الغوري في موقعة مرج دابق في يوم الأحد 25 رجب 922هـ/ 24 أغسطس 1516م، وواصل تقدمه إلى مصر وهزم السلطان طومان باي آخر سلاطين المماليك في موقعة الريدانية يوم الخميس 29 ذي الحجة 922هـ/ 22 يناير 1517م، ولكن طومان باي لم يستسلم وظل يقاوم بشرف وبسالة مع فلول قليلة من المماليك حتى سلمه أحد الأعراب الخونة إلى السلطان سليم فأمر بشنقه، فشنق على باب زويلة يوم الاثنين 22 ربيع الأول 923هـ/13 أبريل 1517م.

وبهذا انتهت مصر كسلطنة مستقلة وأصبحت مجرد ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية، كما نقل سليم الخلافة من مصر إلى عاصمته اسطنبول ولقب نفسه خليفة المسلمين، ففقدت القاهرة مكانتها وزعامتها الروحية أيضاً، وظلت مصر تحكم بواسطة ولاة عثمانيين حتى احتل الفرنسيون مصر سنة 1213هـ/ 1798م، وتم جلاءهم عنها سنة 1216هـ/ 1801م واستطاع محمد علي أن يؤسس مصر الحديثة سنة 1220هـ/ 1805م.

لم يطرأ أي تغيير أو تبديل في تخطيط أو مساحة القاهرة طوال القرون الثلاثة التي حكمها العثمانيون عما كانت عليه أيام المماليك ولم تساير الزمن في تقدمه بل ظلت على حالها ولا نغالي إذا قلنا أنها رجعت القهقري وفقدت بريقها ورونقها وازدهارها وجمالها، فلم يعمل العثمانيون على تطويرها وساد البلاد الفساد الإداري والسياسي إلى جانب عنصر هام أثر في حياة القاهرة وتطورها بل مصر وكلها وهو العامل الاقتصادي، وهذا العامل يرجع سببه إلى ما قبل دخول العثمانيين مصر بقليل وظهر أثره جلياً في عهدهم وذلك عندما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة 904هـ/ 1498م، وكانت مصر تجبي أموالاً طائلة من المكوس والضرائب والاحتكار في التجارة الواردة من الهند والشرق إلى أوروبا، وتأثرت مالية مصر

كثيراً بفقدها ذلك المورد الهائل مما حدا بالغوري أن يعوض تلك الخسارة على حساب كاهل الشعب المصري.

وقد تعرضت بعض أحياء القاهرة للأضرار الناتجة عن المعارك بها بالإضافة إلى نهب الجيش العثماني وتخريبه لأحياء كانت في غاية العمارة مثل حي الأزبكية، إلا أن تلك الحالة لم تدم طويلاً، فسرعان ما تم إصلاح ما خرب وحل العثمانيون محل أمراء وعساكر المماليك في دورهم وأملاكهم بالقاهرة، وقد زار مصر والقاهرة في بداية العصر العثماني بها الرحالة الحسن بن الوزان المعروف بليون الأفريقي، فوصف القاهرة وصفاً ليس فيه أي تغيير عما كانت عليه زمن الغوري، وجاء وصفه للحياة الاجتماعية في غاية الدقة والتشويق[1].

وقد تم الاهتمام ببعض أحياء القاهرة زمن العثمانيين مثل حي بركة الفيل وحي بركة الأزبكية والجانب الغربي للخليج، وقد ازدهرت بولاق بشكل واضح لفقد ميناء الفسطاط لأهميته وكذلك انحسار النيل نهائياً عن المقس.

أما عن صورة القاهرة حيث قدمت الحملة الفرنسية إلى مصر، فبالنظر إلى الخريطة التي رسموها لها سنة 1800م نجد أن حدها الشمالي يمتد من الحسينية إلى باب الحديد، وجنوباً بين القلعة إلى باب عرب يسار إلى باب القرافة بالسيدة عائشة إلى جامع السيدة نفيسة فباب طولون ثم باب البغالة فباب السيدة زينب، وشرقاً تمتد من القلعة فباب الوزير فباب الغريب فباب الحسينية، وغرباً من باب الحديد إلى الأزبكية فباب اللوق فباب الشيخ ريحان فالناصرية فباب السيدة زينب، وكان موضع القاهرة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل وبينها وبينه مزارع، وكانت بولاق ومصر القديمة ضاحيتين مستقلتين، فقد كان الطريق إليهما يمر بالمزارع والحدائق، وقد قامت على شاطئ النيل الشرقي بعض مبان قديمة مثل قصر إبراهيم بك (قصر العيني) تجاه الروضة وبجواره بيت محمد كاشف الأرناؤوطي وعلى شماله بيت مصطفى بك.

وقد اتفق أكثر الرحالة الذين زاروا مصر في تلك الفترة أن شوارع القاهرة كانت ضيقة كثيرة التعاريج، وكان أطولها الشارع الموصل بين باب الحسينية إلى باب السيدة نفيسة –أي

(1) ابن الوزان، وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، المغرب، 1983م، حـ2 ص203-221.

قصبة القاهرة- وطوله 4614 مترا، ولم يكن بالقاهرة سوى أربعة ميادين فسيحة هي ميدان قرا ميدان تحت القلعة وميدان الرميلة بجواره وميدان بركة الفيل (بركة الفيل نفسها) وميدان الأزبكية (بركة الأزبكية)[1].

وقد كانت القاهرة في ذلك الوقت باستثناء ضاحيتي بولاق ومصر القديمة يبلغ محيطها 24 ألف متر بينما تبلغ مساحتها 793,3 هكتار، والهكتار وحدة مساحة فرنسية يساوي عشرة آلاف متر، وإذا أضيفت إليها مصر القديمة وبولاق تصل مساحتها إلى 883,8 هكتارا، وهي بذلك تفوق في الحجم كل عواصم أوروبا آنذاك ما عدا لندن وباريس [2]، وقد قدر عدد سكانها آنذاك 260 ألف نسمة.

وبوصول الحملة الفرنسية بدأت القاهرة تأخذ شكلاً مغايراً، فعلى الرغم من التخريب والتدمير لبعض أحيائها نتيجة ثورتي القاهرة ورد الفعل الفرنسي العنيف لهما، إلا أن الفرنسيين أدخلوا العادات الصحية للمدينة واتبعوا تقسيماً إدارياً لها فقسموها إلى ثمانية أقسام.

وفي عصر محمد علي بدأت نهضة شاملة لمصر وخص القاهرة نصيب من التقدم والعمران، فشقت الطرق الجديدة بها، وبنيت المباني بطرز معمارية جديدة، وحدث تعمير كثير بالمدينة، ورممت مبانيها القديمة وعمرت خرائبها، وأزيلت الكميانات منها وجعل مكانها المتنزهات والحدائق، وبدأت بعض الأحياء في الازدهار مثل شبرا وجاردن سيتي، وعمل محمد علي مجلساً للإشراف على تجميل القاهرة وتنظيمها.

ثم أخذت القاهرة وجهاً جديداً أيام الخديوي إسماعيل الذي تقلص في عهده الطابع الشرقي للقاهرة الذي ظلت محتفظة به في الجانب الشرقي منها، أما الجانب الغربي فكانت القاهرة الجديدة التي نافست عواصم أوروبا، وظلت القاهرة منذ أيام إسماعيل حتى الخمسينات من القرن الماضي مشرقة بقسميها الشرقي والغربي، ثم نمت نمواً كبيراً في عمارتها وعدد سكانها ولكنه كان نمواً عشوائياً غير مخطط، وتحتاج القاهرة الآن حلولاً لازدحامها وضوضائها.

---

(1) عبد الرحمن زكي، القاهرة، ص49.

(2) جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ص75.